التوبة في منهج القرآن الكريم

د. سليمان بن صالح القرعاوي[1]

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين القائل في محكم كتابه : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ

---

(١) الأستاذ المشارك بقسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية، من مواليد بريدة بالقصيم عام ١٣٧٤هـ، حاصل على الدكتوراه في القرآن وعلومه، عضو في المجلس العلمي، وعضو في قاعدة المؤلفين والباحثين بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، له من المؤلفات :
- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم .
- البيان في علوم القرآن الكريم مع مقدمة في أصول التفسير ومصادره .
- فهرس الأعلام لكتاب سير أعلام النبلاء للذهبي .
- قاعدة في فضائل القرآن الكريم لابن تيمية، دراسة وتحقيق .
- تفسير سورة القدر لمحمد الأمير الكبير، دراسة وتحقيق .
- المنهج الأندلسي في التفسير القرآني .
- تفسير الآية الكريمة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ . . ﴾ الآية . دراسة وتحقيق .
- الأنباء في ضوء القرآن والسنة وموقف المجتمع منها قبولاً ورفضاً .
- إيضاح ما يوهم ظاهره التعارض في بعض آيات القرآن الكريم .
- موسى الكليم وفتاه والعبد الصالح كما تحدثت عنه سورة الكهف .

﴿أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾[(١)]، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي بعث بالشريعة السمحة التي أساسها اليسر بالخلق ورفع الحرج عنهم، وغايتها تحقيق مصالحهم والعدل بينهم، وعلى آله وصحبه الذين خلفوه في حراسة شريعته، وهداية أمته، فكانوا نوراً بدّد ظلمات الجهالة، فأرشدوا البشرية، وقرروا الحق للناس قاطبة .

وبعد : فإن دراسة كتاب الله تعالى والعيش في رحابه نعمة لأولي الألباب الذين يعرفون أن الدنيا دار ممر وليست دار مقر، وأن هذا الإنسان استخلفه الله على أرضه ليتخذ من شريعته منهجاً ودليلاً يرشده إذا ضلّ، ويعلمه إذا جهل، ويأخذ بيده في مزالق الطرق، ومتاهات الفيافي والقفار .

ولكن الإنسان عرضة لوسوسة الشيطان، ومجالاً لرمي سهامه، مصداقاً لقوله الذي قصه رب العزة : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝٤٢﴾[(٢)].

فإذا استجاب الإنسان لهذه الغواية، واتبع سبيل الضلال ألقى به الشيطان في بحر تتلاطم أمواجه، والظلام يحيط به من كل جانب عندها يحس بالندم، ويأخذ الهمّ بمجامع قلبه فيتخبط

---

(١) سورة تبارك، الآيتان ١، ٢ .

(٢) سورة الحجر، الآيات ٣٩ ـ ٤٢ .

يمنة ويسرة، ويأخذ في الإقدام والإحجام، ويقرر الفرار إلى ربه والهجرة إلى مولاه، لقوله تعالى : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[1] فيضيء قلبه وتهدأ نفسه ويتذكر قوله تعالى : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾[2] فيسهّل الله له طريق التوبة، يرشده إليها، عندها يسلك طريق الصلاح والخير فيعود إلى ربه نادماً، ويتقدم إليه تائباً . ويتحقق فيه وفي غيره من التائبين قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ ﴾[3] . ولكن متى تكون التوبة صادقة ؟ ومتى يتقبل الله توبة العبد ؟ إن الله تعالى يقول في محكم كتابه : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[4] .

فهل تكون التوبة صادقة، وصاحبها لم يزل في اتباع الهوى ؟ هل تكون التوبة صادقة، وحالة العبد متأرجحة بين الضلال والهدى، ونفسيته تواقة إلى الإيمان، ومشتاقة إلى فعل المنكرات ؟ كما ذكر الله عن ذلك بقوله : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ﴾[5] هل تكون التوبة صادقة ونصوحة، وقد ولّى شبابه، وذهبت أيامه وضاعت قوته، وأصبح شيخاً فانيا، لا حول له ولا طول، وليست عنده رغبة يرغبها أو شهوة يريدها ؟

إن التوبة تكون صادقة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٠ .
(٢) سورة الزمر، الآية ٥٣ .
(٣) سورة التوبة، الآية ١١٨ .
(٤) سورة المائدة، الآية ٢٧ .
(٥) سورة النساء، الآية ١٤٣ .

لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾[1] .

وإذا كان الأمر كذلك فمتى يتقبل الله توبة عبده ؟ وما الدليل على قبولها ؟ وما الشروط التي يجب أن يلزم العبد بها نفسه حتى يكون من هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[2] .

إن هذا البحث (التوبة في منهج القرآن الكريم) يُعدّ باكورة لعمل متواصل ـ بمشيئة الله ـ وثمرة صادقة لمعايشتي كتاب الله تعالى وسنة نبينا ﷺ، ولقد كتب على هذا النمط ليلائم طبيعة العصر ـ عصر الأزرار الفاتكة، والتقنية الباهرة، وكل ما يدعو إلى الدهشة ويصيب الرؤوس بالدوار، وهدفه في النهاية عودة هؤلاء الشاردين الذين احتضنتهم مدنية الغرب بزيفها المغري، وبريقها الخادع . والرجوع بهم مرة أخرى إلى رحاب الله تعالى حيث صفاء الإيمان، ومرتبة الإحسان .

وعناصر هذا البحث لا تخرج عن هذا النطاق وهي :

١ ـ التوبة واقترانها بالإيمان .

٢ ـ التوبة واقترانها بالصلاة والزكاة .

٣ ـ التوبة والعمل الصالح .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يكون بداية خير وقنطرة إلى التوبة

---

(١) سورة النساء، الآية ١٧ .

(٢) سورة الشورى، الآية ٢٥ .

النصوح، عندها يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التوبة عند علماء اللغة :

يقال: تاب إلى الله توباً، ومتاباً، وتابة : رجع عن المعصية، وهو تائب، وتاب الله عليه. وهو تواب على عباده، واستتابه : سأله أن يتوب[١] .

وقال ابن منظور :

التوبة : الرجوع عن الذنب، وتاب إلى الله يتوب توباً، وتوبة ومتاباً : أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة، وتاب الله عليه : وفقه لها، ورجل توّاب : تائب إلى الله، والله تواب : يتوب على عبده[٢]وفي الحديث : « **الندم توبة** »[٣]

ويكاد يكون المعنى الذي تناوله علماء اللغة عن التوبة متقارباً لفظاً ومعنى . فهي الرجوع والإنابة إلى الله تعالى.

التوبة في الاصطلاح :

قال ابن قدامة : « إن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصي حائلاً بين

---

(١) راجع بصائر ذوي التمييز، ٢/ ٣٠٤ .

(٢) راجع لسان العرب، مادة (توب) .

(٣) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند، ١/ ٤٢٣ . وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٦٧٨ .

الإنسان وبين محبوبه »[1]. وما يقوله ابن قدامة يتفق مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « **الندم توبة** » هذا الندم يتولد عنه العزم للإقلاع عن المعصية .

ويقول ابن عاشور في تفسيره :

« لما كانت التوبة رجوعاً من التائب إلى الطاعة، ونبذاً للعصيان، وكان قبولها رجوعاً من المتوب إليه إلى الرضى، وحسن المعاملة، وصف بذلك رجوع العاصي عن العصيان ورجوع المعصي عن العقاب، فقالوا : تاب فلان لفلان فتاب عليه، لأنهم ضمّنوا الثاني معنى عطف ورضي، فاختلاف مفادي هذا الفعل باختلاف الحرف الذي يتعدى به، وكان أصله مبنياً على المشاكلة ».

ويرى ابن عاشور : أن التوبة تتركب من علم، وحال، وعمل. فالعلم : هو معرفة الذنب، والحال : هو تألم النفس من ذلك الضرر ويسمى ندماً، والعمل: هو الترك للإثم، وتدارك ما يمكن تداركه، وهو المقصود من التوبة . وأما الندم فهو الباعث على العمل . كما جاء في الحديث « **الندم توبة** »[2].

فإذا أردنا أن نتعرف على ما يقوله صاحب التعريفات بشأن التوبة نراه يقسمها إلى قسمين : التوبة فقط، والتوبة النصوح . ويعرف الأولى : بالرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب

---

(١) المغني لابن قدامة، ١٤/ ١٩٢ .

(٢) راجع تفسير ابن عاشور، ١/ ٤٣٨ .

ثم القيام بكل حقوق الرب[1].

أما عن التوبة النصوح، فيرى أنها : توثيق العزم على ألا يعود لمثله . قال ابن عباس رضي الله عنهما : التوبة النصوح : الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالبدن، والإصرار على أن لا يعود .

وقيل : التوبة في اللغة : الرجوع عن الذنب، وكذلك التوب قال الله تعالى : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾[2].

وقيل : التوب : جمع توبة، والتوبة في الشرع : الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة، وهي واجبة على الفور عند عامة العلماء، أما الوجوب فلقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[3].

وأما الفورية، فلما في تأخيرها من الإصرار المحرم، والإنابة : قريبة من التوبة لغة وشرعاً .

وقيل : التوبة النصوح : أن لا يبقى على عمله أثراً من المعصية سراً وجهراً .

وقيل : هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلاً وآجلاً .

وقيل : التوبة : الاعتراف والندم والإقلاع[4].

---

(١) التعريفات للجرجاني، ص ٨٣ .

(٢) سورة غافر، الآية ٣ .

(٣) سورة النور، الآية ٣١ .

(٤) المرجع السابق .

ولا شك أن صاحب التعريفات قد أضاف إلى ما ذكره العلماء من تعريفات التوبة : الوجوب، والفورية . ولقد جاءت آيات كثيرة في كتاب الله تدل على وجوب التوبة، من ذلك : ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا ﴾[١] . وقوله أيضاً : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴾[٢] . وأما عن الفورية فقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ ﴾[٣] .

قال ابن عباس والسدي : معناه قبل المرض والموت، وروي عن الضحاك أنه قال : كل ما كان قبل الموت فهو قريب .

ولقد أحسن محمود الوراق حيث قال :

قـدم لنفسـك تـوبـة مـرجـوة
قبل الممات وقبل حبس الألسن

بـادر غلـق[٤] النفـوس فـإنهـا
ذخـرٌ وغنـمٌ للمنيـب المحسـن

وقد روى الترمذي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « **إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر** »[٥] . ومعنى ما لم يغرغر : ما لم

---

(١) سورة هود، الآية ٣ .

(٢) سورة هود، الآية ٥٢ .

(٣) سورة النساء، الآية ١٧ .

(٤) يقال : غلق الرهن إذا لم يقدر على افتكاكه . يريد : بادر بالتوبة قبل ضياع الفرصة .

(٥) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات ٩٨، وابن ماجه في الزهد ٣٠، =

تبلغ روحه حلقومه .

وإذا كان الأمر كذلك فيطيب لي أن أعرض معاني التوبة التي جاءت في كتاب الله تعالى عن طريق الإيجاز غير المخل، أو التطويل غير الممل . وبالله التوفيق .

معاني التوبة في القرآن الكريم :

يرى صاحب البصائر أن التوبة جاءت في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه :

الأول : بمعنى التجاوز والعفو، وهذا مقيد بـ (على)[1] قال تعالى : ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2]، وقال تعالى : ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ إلى ﴿ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[3] . قاتلوهم يجعلكم الله ستار قدرته، وأداة مشيئته، فيعذبهم بأيديكم ويخزهم بالهزيمة، وينصركم عليهم، ويشف صدور جماعة من المؤمنين ممن آذاهم وشردهم المشركون، يشفها بهزيمة الباطل، وتشريد المبطلين .

= وصاحب الموطأ في الحدود ٢، وأحمد بن حنبل في المسند، ٢/ ١٩٢، ٤٢٥ .

(١) بصائر ذوي التمييز، ٢/ ٣٠٨ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٥٤ .

(٣) سورة التوبة، الآيتان ١٤، ١٥ .

فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان، ويفتح بصيرتهم على الهدى، حين يرون المسلمين ينصرون، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم، ويرون آثار الإيمان في مواقفهم . وهذا ما كان فعلاً، وعندئذ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم، وأجر هداية الضالين، وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين[١] .

الثاني : بمعنى الرجوع، والإنابة، وهذا مقيد بـ (إلى) قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[٢]. وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[٣] .

قال ابن عباس : تبت إليك : رجعت عن الأمر الذي كنت عليه، وذلك شأن الرجل المؤمن صاحب الفطرة السليمة المستقيمة مع ربه والذي عاد ورجع إليه تائباً مستغفراً، وأما شأن ربه معه فقد ذكره القرآن الكريم بقوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[٤] .

وفي الآية الأخرى : تذكر التوبة النصوحة، وهي التوبة عن

---

(١) راجع في ظلال القرآن لسيد قطب، ٤/١٥٧ .

(٢) سورة الأحقاف، الآية ١٥ .

(٣) سورة التحريم، الآية ٨ .

(٤) سورة الأحقاف، الآية ١٦ .

الذنب والمعصية، تبدأ بالندم على ما كان، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة، فهي من هذا المنطلق تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصي، وتدفعه إلى العمل الصالح . ثم تظل تذكر القلب فلا يعود إلى الذنوب، ولا يفكر في المعصية، ولا يقترب منها، ولا يكون للشيطان عليه من سلطان، قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾[1] .

الثالث : بمعنى الندامة على الزلة، وهذا غير مقيد لا بـ (إلى) ولا بـ (على) قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾[2] .

هؤلاء يفتح القرآن لهم هذه النافذة المضيئة ـ نافذة التوبة ـ يفتحها فتنسم نسمة الأمل في الصدور، وتقود القلوب إلى مصدر النور فلا تيأس من رحمة الله، وكيف يحدث هذا والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾[3] . وكيف يخالجها قنوط والله تعالى يقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[4] السيئات جميعها جليلها وحقيرها، عظيمها وكبيرها . وكيف لا يكون كذلك والله قد أعلن في كتابه عن ذلك بقوله : ﴿ كَتَبَ

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٦٥ .

(٢) سورة البقرة، الآية ١٦٠ .

(٣) سورة الزمر، الآية ٥٣ .

(٤) سورة الشورى، الآية ٢٥ .

رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[١] . فهذا إخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده : إن رحمتي تغلب غضبي** »[٢] . وإذا كان الأمر كذلك وأن الله تعالى قد فرض التوبة على عباده وأوجبها عليهم قبل أن يظلهم الموت، أو أن تنزل عليهم آثاره، فما هي شروط التوبة ؟

الشروط الواجب توافرها للتوبة :

اتفق العلماء على أن الذنب الذي يريد أن يقلع عنه العبد ويتوب منه هو ما بينه وبين ربه، فيشترط لذلك شروط ثلاثة :

الأول : الندم على ما سلف منه في الماضي .

والندم والندامة التحسر قال تعالى : ﴿ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾[٣]، وقال تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾[٤] .

يندم هؤلاء عندما يجيء أمر الله، يندم أولئك الذين في قلوبهم مرض على المسارعة والاجتهاد فيما يغضب الله تعالى، وعلى النفاق الذي انكشف أمره، عندئذ يندمون ـ ولا ينفعهم

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٥٤ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التوحيد ٥٥، وبدء الخلق ١، ومسلم في التوبة ١٤، ١٦، وابن ماجه في الزهد ٣٥، وأحمد بن حنبل ٢/ ٢٤٢، ٢٥٨، ٢٦٠ .

(٣) سورة المائدة، الآية ٥٢ .

(٤) سورة سبأ، الآية ٣٣ .

الندم ـ ولا ينجيهم من هذا الهول إلا العودة إلى الله تعالى، تائبين آيبين مقرين بذنوبهم .

الثاني : الرجوع والإقلاع عنه في الحال .

يقال : رجعت عن كذا رجعاً، ورجعت الجواب، نحو قوله تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾[1] . وقد جاء الرجوع بمعنى محاسبة النفس والرجوع إليها، قال تعالى : ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[2]، وبمعنى التوبة، قال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾[3] وظلت العناية الإلـهية تواليهم بالابتلاءات، تارة بالنعماء، وتارة بالبأساء، لعلهم يرجعون إلى ربهم، ويثوبون إلى رشدهم ويستقيمون على طريقهم .

أما عن الإقلاع في الحال على طريق الفورية، فهذا كان نهج المسلمين الأول، يتلقون الأوامر عن طريق الوحي المتتابع فتعيه قلوبهم، وتنفذه جوارحهم، من ذلك عندما نزل قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[4] .

يقول أنس بن مالك : كنا نشرب الخمر وبعضنا شربته في

---

(١) سورة التوبة، الآية ٨٣ .
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٦٤ .
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٦٨ .
(٤) سورة المائدة، الآية ٩٠ .

يده، والبعض الآخر رفعها إلى فمه، فسمعنا منادي الرسول ﷺ ألا إن الخمر قد حرمت، فكسرنا الدنان وأريقت الخمر، حتى جرت في سكك المدينة، وتوضأ بعضنا، واغتسل البعض الآخر، وذهبنا إلى مسجد الرسول ﷺ ونحن نردد « انتهينا انتهينا »(١).

إجابة فورية، وإقلاع عما كانوا عليه من الحلال عندما تحول إلى حرام .

الثالث : العزم على ألا يعاوده في المستقبل .

والعزم والعزيمة عقد القلب على إمضاء الأمر، يقال عزمت الأمر وعزمت عليه واعتزمت، قال تعالى : ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾(٢)، وقال أيضاً : ﴿ **فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴿١٨٦﴾ ﴾(٣)، وقال أيضاً : ﴿ **وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴿١١٥﴾ ﴾(٤) أي : محافظة على ما أمر به، وعزيمة على القيام بالتكاليف. ويرى النقاش : أن العزم والحزم واحد، والحاء مبدلة من العين . وقال ابن عطية : وهذا خطأ فالحزم جودة النظر في الأمر وتنقيحه والحذر من الخطأ فيه، والعزم قصد الإمضاء، والعرب تقول : « قد أحزم لو أعزم ». يقول : أعرف وجه الحزم، فإن عزمت فأمضيت الرأي فأنا حازم، وإن تركت الصواب وأنا أراه وضيعت العزم لم ينفعني الحزم .

---

(١) راجع تفسير القرطبي، ٦/ ٢٩٢ .
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٩ .
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٨٦ .
(٤) سورة طه، الآية ١١٥ .

هذه هي الشروط الثلاثة للتوبة، إذا كان الذنب والمعصية التي يريد التوبة منها بينه وبين ربه، أما إذا كانت المعصية تتعلق بحقوق العباد فقد أضاف العلماء شرطاً آخر وهو :

الرابع : أن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً أو عقاراً رده لصاحبه، كما قال الرسول ﷺ : « **من استطاع منكم أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله** » قالوا : ومن صاحب فَرَقِ الأرز يا رسول الله ؟

فذكر حديث الغار حين سقط عليهم الجبل، فقال كل واحد منهم، اذكروا أحسن عملكم . قالا . وقال الثالث : اللهم إنك تعلم أني استأجرت أجيراً بفرق أرز، فلما أمسيت عرضت عليه حقه فأبى أن يأخذه وذهب، فثمرته له حتى جمعت له بقراً ورعاءها . فلقيني فقال : أعطني حقي ؟ فقلت : اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها فذهب فاستاقها »[1] .

إن حقوق الآخرين، لا تسقط بأي حال من الأحوال إلا إذا تنازل عنها صاحبها . وهناك أحاديث كثيرة، منها قول الرسول ﷺ : « **من ظلم قيد شبر من الأرض طُوِّقه يوم القيامة** »[2]، ويوم

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في البيوع، ومسلم في كتاب الذكر حديث ٢٧٤٣ باب قصة أصحاب الغار، وأبو داود في كتاب البيوع حديث ٣٣٨٧ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في الديات ٢١، والبخاري في بدء الخلق(٢) ومسلم في كتاب المساقاة ١٣٧، ١٣٩، وأحمد بن حنبل في المسند ١/١٨٧، ١٩٠، ٢/٣٨٧، ٤٣٢ .

القيامة : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ ﴾[1] السرائر المكنونة المطوية على الأسرار المحجوبة، بأن هذا ضرب هذا وهتك عرض ذاك، وتقوّل ثالث، وقذف رابعا، وعندها هو متجرد من كل قوة، ومن كل ناصر ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾[2] فإذا رغب في التوبة لينجو من هول هذا اليوم فعليه أن يبرأ من حقوق الآخرين، فإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه، أو طلب عفوه، وإن كان غيبة استحله منها . وإلا فلا توبة له . ويوم القيامة يرى حقوق الآخرين قد سبقته إلى يوم الحشر العظيم تأخذ بتلابيبه، كما قال تعالى : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾[3] .

وإذا كان الأمر كذلك فيطيب لي أن أعرض أمام القارىء أقوال العلماء واستنباطات المفكرين الإسلاميين عن المعاني الآتية في منهج القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة وهي :

١ ـ التوبة واقترانها بالإيمان .

٢ ـ التوبة واقترانها بالصلاة والزكاة .

٣ ـ التوبة واقترانها بالعمل الصالح .

هذا وعلى الله قصد السبيل ومنه التوفيق والسداد .

التوبة واقترانها بالإيمان :

سبق وأن تناولنا مفهوم التوبة عند علماء اللغة، وعند علماء

(١) سورة الطارق، الآية ٩ .

(٢) سورة الطارق، الآية ١٠ .

(٣) سورة الكهف، الآية ٤٩ .

الاصطلاح وجلينا حقيقتها بما يسره الله لنا من آيات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ونرى قبل البدء في طرح التوبة واقترانها بالإيمان، أن نضع أمام القارىء نبذة مختصرة عن الإيمان من خلال آيات القرآن الكريم . جاء الإيمان بمعنى التوحيد في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[1] .

قال القرطبي : أي: بما أنزل على محمد، وقال أبو الهيثم: ومن يكفر بالإيمان أي : يجحده، وروي عن ابن عباس ومجاهد أن المعنى : ومن يكفر بالله . قال الحسن بن الفضل : إن صحت هذه الرواية فمعناها برب الإيمان[2] .

وجاء الإيمان بمعنى التصديق في السر والإعلان، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾[3] أي الذين صدقوا بما جاءت به الرسل، وما نزل به الوحي. وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله، من أكرم الخلق على الله ؟ قال : « **يا عائشة أما تقرئين**: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾[4] ». وجاء الإيمان بمعنى الصلاة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾[5] .

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥ .

(٢) راجع تفسير القرطبي، ٧٩/٦ .

(٣) سورة البينة، الآية ٧ .

(٤) راجع فتح القدير، ٤٧٧/٥ .

(٥) سورة البقرة، الآية ١٤٣ .

أخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما وُجه النبي ﷺ إلى الكعبة . قالوا : يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى المقدس ؟

فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ** ﴾[١] قال : هذا حديث صحيح فسمى الصلاة إيماناً لاشتمالها على نية وقول وعمل .

وقال أبو القاسم : الإيمان يستعمل تارة اسماً للشريعة التي جاء بها محمد ﷺ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ** ﴾[٢]، ويوصف به كل من دخل في شريعته مقراً بالله وبنبوته، وتارة يستعمل على سبيل المدح ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء :

تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح، ويقال لكل واحد من الاعتقاد والقول : الصدق، والعمل الصالح : إيمان[٣] .

وبعد هذه الكلمة عن الإيمان يطيب لي أن استعرض أقوال العلماء في اقتران الإيمان بالتوبة . والله الهادي إلى سواء السبيل . قال الله تعالى : ﴿ **وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣** ﴾[٤] .

---

(١) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن ٥/٢٠٨ ح ٢٩٦٤ .
(٢) سورة البقرة، الآية ٦٢ .
(٣) راجع بصائر ذوي التمييز، ٢/ ١٥٠ .
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٥٣ .

قال ابن عطية : « تضمنت هذه الآية الوعد بأن الله عز وجل يغفر للتائبين، والإشارة إلى من تاب من بني إسرائيل . وفي الآية ترتيب الإيمان بعد التوبة، والمعنى في ذلك أنه أراد بقوله : ﴿ وَءَامَنُوٓاْ ﴾ أن التوبة نافعة لهم منجية فتمسكوا بها، فهذا إيمان خاص بعد الإيمان على الإطلاق، ويحتمل أن يريد بقوله : ﴿ وَءَامَنُوٓاْ ﴾ أي : وعملوا عمل المؤمنين حتى وافوا على ذلك، ويحتمل أن يريد التأكيد فذكر التوبة والإيمان إذ هما متلازمان، إلا أن التوبة ـ على هذا ـ تكون من كفر ولا بد، فيجيء ﴿ تَابُواْ ﴾، ﴿ وَءَامَنُوٓاْ ﴾ بمعنى واحد، وهذا لا يترتب في توبة المعاصي، فإن الإيمان متقدم لتلك ولا بد . وهو وتوبة الكفر متلازمان . وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ إيجاب ووعد مرج . قال : ويحتمل قوله ﴿ تَابُواْ ﴾، ﴿ وَءَامَنُوٓاْ ﴾ أن يكون لم تقصد رتبة الفعلين على عرف الواو في أنها لا توجب رتبة، ويكون ﴿ وَءَامَنُوٓاْ ﴾ بمعنى وهم مؤمنون قبل وبعد »[(١)] .

إن ما قاله المفسر الكبير ابن عطية من أن هذه الآية إشارة إلى من تاب من بني إسرائيل، ونحن نعلم أن بني إسرائيل قد آمنوا بموسى، وخرجوا مع نبيهم فارين من فرعون وجبروته، فارين إلى الله تعالى، كما قال : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[(٢)] .

وعندما تركهم موسى؛ رجعوا عن إيمانهم باتخاذهم العجل

---

(١) راجع المحرر الوجيز، ٦/ ٩١ .
(٢) سورة الذاريات، الآية ٥٠ .

إلـٰهاً، قال تعالى في الآية السابقة على هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾(١) .

ثم ماذا ؟ ثم تابوا عن فعلتهم الشنيعة، عندها استقر الإيمان مرة أخرى في قلوبهم . فالآية على هذا التخريج لا تحتاج إلى هذه الاحتمالات الكثيرة التي ذكرها هذا المفسر الكبير .

ويؤكد الذي ذهبت إليه ما ذكره القرطبي عند حديثه عن هذه الآية بقوله: « ثم أخبر الله تعالى : أنه يقبل توبة التائب من الشرك وغيره ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي : الكفر والمعاصي ﴿ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا ﴾ أي : من بعد فعلها ﴿ وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا ﴾ أي : من بعد التوبة ﴿ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣ ﴾(٢) .

فإذا تركنا الإمام القرطبي، واتجهنا إلى صاحب زاد المسير لنرى ما ارتآه عند تفسيره لهذه الآية، نجده يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها الشرك .

والثاني : الشرك وغيره من الذنوب . ﴿ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا ﴾ يعني السيئات . وفي قوله : ﴿ وَءَامَنُوٓاْ ﴾ قولان :

أحدهما : آمنوا بالله، وهو يخرج على قول من قال : السيئات هي الشرك .

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٥٢ .

(٢) راجع تفسير القرطبي، ٧/ ٢٩٢ .

والثاني : آمنوا بأن الله تعالى يقبل التوبة[1] .

فإذا اتجهنا إلى مفسر قريب العهد بابن الجوزي، وهو الإمام القرطبي، نراه يفرع هذه المسألة، ويستعرض أقوال العلماء والفرق الذين أدلوا بدلوهم في اقتران التوبة بالإيمان، فنراه يقول عند حديثه عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾[2] .

« هذه الآية عامة لكل من عمل ذنباً، وقيل : لمن جهل فقط، والتوبة لكل من عمل ذنباً في موضع آخر، واتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[3] .

وتصح من ذنب مع الإقامة على غيره من غير نوعه ـ خلافاً للمعتزلة في قولهم : لا يكون تائباً من أقام على ذنب، ولا فرق بين معصية ومعصية ـ هذا مذهب أهل السنة .

وإذا تاب العبد فالله سبحانه بالخيار إن شاء قبلها، وإن لم يشأ لم يقبلها، وليس قبول التوبة واجباً على الله من طريق العقل ـ

---

(١) راجع زاد المسير، ٣/٢٦٦ .
(٢) سورة النساء، الآيتان ١٧، ١٨ .
(٣) سورة النور، الآية ٣١ .

كما قال المخالف ـ لأن من شرط الواجب أن يكون أعلى رتبة من الموجب عليه، والحق سبحانه خالق الخلق ومالكهم والمكلف لهم؛ فلا يصح أن يوصف بوجوب شيء عليه، تعالى الله عن ذلك. غير أنه قد أخبر سبحانه ـ وهو الصادق في وعده ـ بأنه يقبل التوبة عن العاصين من عباده بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[1]. وقوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾[2]. وقوله : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾[3].

فإخباره سبحانه وتعالى عن أشياء أوجبها على نفسه، يقتضي وجوب هذه الأشياء . والعقيدة أنه لا يجب عليه شيء عقلاً، فأما السمع فظاهره قبول توبة التائب . قال أبو المعالي[4] وغيره : وهذه الظواهر إنما تعطي غلبة ظن، لا قطعاً على الله تعالى بقبول التوبة .

قال ابن عطية : وقد خولف أبو المعالي وغيره في هذا المعنى، فإذا فرضنا رجلاً قد تاب توبة نصوحاً، تامة الشروط،

---

(١) سورة الشورى، الآية ٢٥ .

(٢) سورة التوبة، الآية ١٠٤ .

(٣) سورة طه، الآية ٨٢ .

(٤) هو عبدالملك بن عبدالله أبو المعالي الملقب بإمام الحرمين : أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي، ذهب إلى مكة والمدينة فأفتى ودرس جامعاً لطرق المذاهب، له العديد من المصنفات منها : (البرهان في أصول الفقه) (العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية) وغير ذلك، توفي عام ٤٧٨هـ . انظر (وفيات الأعيان) ٣/ ١٦٧، (العبر) ٣/ ٢٩١ .

فقال أبو المعالي : يغلب على الظن قبول توبته، وقال غيره : يقطع على الله تعالى بقبول توبته، كما أخبر عن نفسه جل وعز، قال ابن عطية : وكان أبي رحمه الله يميل إلى هذا القول ويرجحه وبه أقول، والله أرحم بعباده من أن ينخرم في هذا التائب المفروض معنى قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾[1].

وقوله: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[2].

وإذا تقرر هذا فاعلم أن في قوله : (على الله) حذفاً وليس على ظاهره، وإنما المعنى : على فضل الله ورحمته بعباده، وهذا نحو قوله ﷺ لمعاذ : « **أتدري ما حق العباد على الله** »؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : « **أن يدخلهم الجنة** »[3].

فهذا كله معناه على فضله ورحمته بوعده الحق، وقوله الصدق، دليله قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[4] أي : وعد بها . أي أنه وعد، ولا خلف في وعده أنه يقبل التوبة إذا كانت بشروطها المصححة لها . . »[5]. هذا ما قاله القرطبي عن التوبة واقترانها بحقيقة الإيمان . ثم تناول شروط التوبة ـ التي

---

(١) سورة الشورى، الآية ٢٥ .

(٢) سورة طه، الآية ٨٢ .

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في اللباس ١٠١ والتوحيد ١، ومسلم في الإيمان ٤٨، ٤٩، والترمذي في الإيمان ١٨، وابن ماجه في الزهد ٣٥ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة .

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٢ .

(٥) راجع تفسير القرطبي ٥/ ٩٠ وما بعدها بتصرف .

سبق الحديث عنها ـ ومضيفاً لها أن يكون الإقلاع عن الذنب أو الجرم حياء من الله تعالى، وخوفاً من عقابه، لا لشيء آخر، كالعجز أو عدم الرغبة، أو قلة الحيلة التي يمكن أن تحقق له أهدافه في المعصية أو الجريمة التي تتوق نفسه لارتكابها .

ويطيب لي أن أختم موضوع اقتران التوبة بالإيمان بما قرره أحد العلماء المعاصرين، وهو العالم الجليل ابن عاشور رحمه الله صاحب التفسير المشهور، ولا شك أنه أضاف جديداً إلى ما توصل إليه السابقون من علماء الإسلام الأجلاء، فهو يقول : « اعتراض بأنهم إن تابوا وآمنوا يغفر الله لهم على عادة القرآن من تعقيب التهديد بالترغيب، والمغفرة ترجع إلى عدم مؤاخذتهم بذنوبهم في عقاب الآخرة وإلى ارتفاع غضب الله عنهم في المستقبل .

والمراد بالسيئات : ما يشمل الكفر، وهو أعظم السيئات، والتوبة منه وهي الإيمان، وعطف الإيمان على التوبة، مع أن التوبة تشمله من حيث أن الإيمان توبة من الكفر، إما للاهتمام به لأنه أصل الاعتداد بالأعمال الصالحة عند الله تعالى كقوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾[1] . ولئلا يظن أن الإشراك لخطورته لا تنجي منه التوبة، وإما أن يراد بالإيمان، إيمان خالص فيشمل عمل الواجبات »[2].

---

(١) سورة البلد، الآيات ١٢ ـ ١٧ .

(٢) راجع تفسير ابن عاشور، ٩/ ١٢٠ .

هذا ما قاله العلماء، وما أضافه ابن عاشور عن اقتران التوبة بالإيمان .

ولا شك أن الجميع من خلق الله تعالى، وهم تحت مشيئته وإرادته، لا يملكون التوبة إلا أن يتوب الله عليهم؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾[1]، أي قبل مشيئته لا يملكون التوبة، ولا يقدرون عليها. والرأي الذي نرتضيه نتيجة لما سبق أن توبة التائب بشروطها مقبولة؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[2]، وإذا كان الأمر كذلك فعلينا أن نجلي أقوال العلماء وردودهم في التوبة واقترانها بالصلاة والزكاة. وعلى الله قصد السبيل .

التوبة واقترانها بالصلاة والزكاة :

قبل أن نتناول هذا الموضوع بالتبيين والتوضيح، وعرض أقوال العلماء ومفكري الإسلام بشأنه، نرى أن نقدم بين يدي هذا البحث نبذة مختصرة عن مفهوم الصلاة والزكاة في منهج الإسلام .

إن الصلاة من العبادات التي لم تنفك شريعة منها، وإن اختلفت صورها بين شرع وآخر، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾[3] .

وقال بعضهم: أصل الصلاة من الصَلَى، ومعنى صلَّى الرجل

---

(١) سورة التوبة، الآية ١١٨ .

(٢) سورة الشورى، الآية ٢٥ .

(٣) سورة النساء، الآية ١٠٣ .

أزال عن نفسه بهذه العبادات الصَلَى الذي هو نار الله الموقدة .

والصلاة : هي الصلة بين العبد وربه، والرابطة التي تربط الأرض بالسماء، ومعراج المؤمنين إلى ربهم، والمطية السريعة التي تنقلنا إلى رحاب الله سبحانه وتعالى. عندها يزول البعد، وتنمحي المسافات؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾(١) .

والصلاة رحمة مهداة من الله إلى عباده، ومن الملائكة الأبرار إلى العباد المخلصين .

يقول الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾(٢) .

والصلاة هنا رحمة، لأنها تخرج المؤمنين من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، ومن العماية إلى الهدى، ومن الطرق المتشعبة إلى الطريق الواحد المستقيم .

وصلاة الملائكة رحمة واستغفار، قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾(٣) .

وصلاة الرسول ﷺ لأمته رحمة ودعاء، قال الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﷺ : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ ﴾(٤) .

---

(١) سورة العلق، الآية ١٩ .
(٢) سورة الأحزاب، الآية ٤٣ .
(٣) سورة غافر، الآية ٧ .
(٤) سورة التوبة، الآية ١٠٣ .

هذه هي الصلاة في منهج الإسلام فماذا عن الزكاة ؟

الزكاة : النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ومنه الزكاة لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء، وتسميته بذلك لما يكون فيه من رجاء البركة، أو لتزكية النفس أي تنميتها بالخيرات والبركات .

وبزكاة النفس وطهارتها يصير الإنسان مستحقاً في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والثواب . والتطهير ينسب تارة إلى العبد لاكتسابه ذلك، نحو قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[1] ، وتارة إلى الله تعالى لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة، نحو: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾[2]، وتارة إلى النبي ﷺ لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم، نحو قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[3] .

أما اقترانها بالتوبة فذلك لقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾[4] .

يقول الماوردي[5] عند تفسيره لهذه الآية : « أي : أسلموا؛

---

(١) سورة الشمس، الآية ٩ .

(٢) سورة النساء، الآية ٤٩ .

(٣) سورة التوبة، الآية ١٠٣ .

(٤) سورة التوبة، الآية ٥ .

(٥) هو علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي، الفقيه الشافعي . كان من وجوه الفقهاء الشافعية، ولد في البصرة عام ٣٦٤ هـ وتوفي ببغداد عام ٤٥٠ هـ . من مصنفاته : الأحكام السلطانية، والنكت والعيون، والحاوي =

لأن التوبة من الكفر تكون بالإسلام .

﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أي : اعترفوا بإقامتها، وهو مقتضى قول أبي حنيفة؛ لأنه لا يقتل تارك الصلاة إذا اعترف بها .

الثاني : أنه أراد فعل الصلاة، وهو مقتضى قول مالك والشافعي؛ لأنهما يقتلان تارك الصلاة، وإن اعترف بها .

﴿ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ يعني : اعترفوا بها على الوجهين معاً؛ لأن تارك الزكاة لا يقتل مع الاعتراف بها، وتؤخذ من ماله جبراً . وهذا إجماع »(١) .

هذا ما قاله الماوردي . ولا شك أن وظيفته كقاضٍ يمحص الأحكام، ويقوم معوجها عن طريق الأدلة والبراهين، كان لها أعمق الأثر فيما خطه قلمه، سواء في مجال السياسة وإقامة الدولة، أو في تفسيره لآيات الكتاب العزيز .

أما الإمام القرطبي فيقول : « هذه الآية فيها تأمل . وذلك أن الله تعالى علق القتل على الشرك، ثم قال : ﴿ فَإِن تَابُواْ ﴾ والأصل : أن القتل متى كان للشرك يزول بزواله، وذلك يقتضي زوال القتل بمجرد التوبة، من غير اعتبار إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولذلك سقط القتل بمجرد التوبة قبل وقت الصلاة

= في فقه الشافعية، وغير ذلك . انظر طبقات الشافعية ٣/ ٣٠٣، وفيات الأعيان ٣/ ٢٨٢ .

(١) راجع تفسير الماوردي، ٢/ ١٢٠ .

والزكاة، وهذا بيّن في هذا المعنى، غير أن الله تعالى ذكر التوبة وذكر معها شرطين آخرين، فلا سبيل إلى إلغائهما، نظيره قوله ﷺ : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلـه إلا الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله** »[(١)].

قال ابن العربي[(٢)]: فانتظم القرآن والسنة واطردا . ولا خلاف بين المسلمين أن من ترك الصلاة وسائر الفرائض مستحلاًّ كفر، ومن ترك السنة متهاوناً فسق، ومن ترك النوافل لم يَحْرَج، إلا أن يجحد فضلها فيكفر؛ لأنه يصير رادّاً على الرسول ﷺ ما جاء به وأخبر عنه .

وقال أيضاً : هذه الآية دالة على أن من قال : قد تبت، أنه لا يجتزأ بقوله حتى ينضاف إلى ذلك أفعاله المحققة للتوبة؛ لأن الله عز وجل شرط هنا مع التوبة إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ليحقق بهما التوبة »[(٣)].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الإيمان ١٧، ٢٨، والصلاة ٢٨، والزكاة ١، ومسلم في كتاب الإيمان ٣٢، ٣٦، وأبو داود في الجهاد ٩٥، والترمذي في التفسير سورة ٨٨، وابن ماجه في الفتن ١ .

(٢) هو محمد بن عبدالله بن محمد المعافري أبو بكر بن العربي، قاضٍ من حفاظ الحديث، ولد في أشبيلية عام ٤٦٨هـ، ورحل إلى المشرق، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين، وصنف في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ، توفي عام ٥٤٦ هـ، راجع وفيات الأعيان ٤/ ٢٩٦، العبر ٤/ ١٢٥ .

(٣) راجع تفسير القرطبي، ٨/ ٧٤ .

ونرى أن القرطبي في كلمته هذه فرَّق بين القتل وبين قبول التوبة، فإذا تاب رفع عنه القتل . ولكن تحقيق التوبة ودخوله في زمرة المؤمنين لا يكون إلا بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة . أي أن يحقق القول الفعل . وإذا كانت هذه تصورات السابقين من رجالات التفسير، فيطيب لنا أن نتعرف على أقوال بعض المعاصرين بالنسبة للآية التي معنا .

يقول سيد قطب :

« لقد كانت هنالك وراءهم اثنتان وعشرون سنة من الدعوة والبيان، ومن إيذائهم للمسلمين، وفتنتهم عن دينهم، ومن حرب للمسلمين وتأليب على دولتهم، ثم من سماحة هذا الدين ورسوله و أهله معهم، وإنه لتاريخ طويل، ومع هذا كله فقد كان الإسلام يفتح لهم ذراعيه؛ فيأمر الله نبيه والمسلمين الذين أوذوا وفتنوا وحوربوا وشردوا وقتّلوا . كان يأمرهم أن يكفوا عن المشركين إن هم اختاروا التوبة إلى الله تعالى، والتزموا شعائر الإسلام التي تدل على اعتناقهم هذا الدين، واستسلامهم له وقيامهم بفرائضه، وذلك أن الله لا يرد تائباً مهما تكن خطاياه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

ثم يقول : [ما جاء في الآية] هو نص كان يواجه واقعاً في مشركي الجزيرة يومذاك. فما كان أحدهم ليعلن توبته، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة إلا وهو يعني الإسلام كله، ويعني استسلامه له ودخوله فيه . فنصَّت الآية على التوبة، وإقامة الصلاة، وإيتاء

---

(١) سورة التوبة، الآية ٩٩ .

الزكاة، لأنه ما كان ليفعل هذا منهم في ذلك الحين إلا من نوى الإسلام، وارتضاه بكامل شروطه، وكامل معناه، وفي أولها الدينونة لله وحده، وشهادة أن لا إلـه إلا الله والاعتراف برسالة محمد ﷺ بشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ . فليست هذه الآية بصدد تقرير حكم فقهي، إنما هي بصدد إجراء واقعي له ملابساته »[١] .

ومع تقديرنا واحترامنا لصاحب الظلال، فنرى أن الآية قد تضمنت حكماً فقهياً، وهو عدم القتل وعصمة أموالهم، وذلك من منطلق حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلـه إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم . . .** »[٢] إلخ .

فهذا الحديث أمر من الله تعالى بمقاتلتهم وسفك دمائهم وغنيمة أموالهم. ثم جاءت الآية، وكأنها تقول للرسول ﷺ كف عن قتلهم وأخذ أموالهم ـ بقوله تعالى : ﴿ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ ﴾[٣] وهل التخلية إلا الكف والمنع ؟ فكيف لا تكون الآية متضمنة حكماً فقهياً . وإذا كانت هذه الآية قد تضمنت « التخلية » لينطلقوا إلى حال سبيلهم، فإن الآية التي جاءت بعدها في نفس السورة قد أوجبت على المسلمين مؤاخاتهم في الدين ومراعاتهم في شئون الحياة، قال الله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ

---

(١) راجع في ظلال القرآن لسيد قطب، ٣/١٦٠١، ١٦٠٢ .
(٢) سبق تخريج هذا الحديث قريباً من هذا .
(٣) سورة التوبة، الآية ٥ .

ﭐلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾[1] .

الآية الثانية :

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[2] .

قال ابن الجوزي في تفسيره : أي : فتجاوز عنكم وخفف بنسخ إيجاب الصدقة . وقال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك ـ أي النسخ ـ لعشر ليال . وقال قتادة : ما كان إلا ساعة من نهار[3] .

فابن الجوزي يرى أن قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ ﴾[4] قد نسخت بقوله تعالى: ﴿ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

فإذا أردنا أن نتعرف على رأي ابن عطية في تفسيره لهذه الآية، فنراه ينفي قضية النسخ . ونص كلامه في ذلك : « ومن قال : إن هذه الصدقة منسوخة بآية الزكاة فقوله ضعيف لا يحصِّل كيفية النسخ، وما ذكر في نحو هذا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لا يصح عنه . والله تعالى أعلم »[5] .

وقضية النسخ التي قال بها ابن الجوزي واستبعدها ابن عطية، لم تجد حلاً لها عند المفسر المعاصر ابن عاشور. فنراه

---

(١) سورة التوبة، الآية ١١ .
(٢) سورة المجادلة، الآية ١٣ .
(٣) راجع زاد المسير، ٨/ ١٩٥ .
(٤) سورة المجادلة، الآية ١٢ .
(٥) تفسير ابن عطية، ١٤/ ٣٥٥ .

يقول: « المشهور عند جمع من سلف المفسرين، أنها نزلت بعد عشرة أيام من التي قبلها، وذلك أن بعض المسلمين القادرين على تقديم الصدقة قبل النجوى شق عليهم ذلك، فأمسكوا عن مناجاة النبي ﷺ فأسقط الله وجوب هذه الصدقة.

وقد قيل: لم يعمل بهذه الآية غير علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولعل غيره لم يحتج إلى نجوى الرسول ﷺ واقتصد مما كان يناجيه » . ثم يتابع حديثه قائلاً: « قال المفسرون: على أن هذه الآية ناسخة للتي قبلها فسقط وجوب تقديم الصدقة لمن يريد مناجاة الرسول ﷺ، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما واستبعده ابن عطية »[١].

إن ابن عاشور رحمه الله لم يضف جديداً إلى ما قاله ابن الجوزي وما اعترض به ابن عطية، الأمر الذي يقتضينا أن نتعرف على رأي صاحب الظلال لعلنا نجد عنده إضافة جديدة في تفسير هذه الآية. قال صاحب الظلال: وهكذا يتولى القرآن تربية النفوس وتهذيبها، وتعليمها الفسحة والسماحة، والطاعة بأسلوب التشويق والاستجاشة، فالدين ليس بالتكاليف الحرفية، ولكنه تحول في الشعور، وحساسية في الضمير ... ثم يقول: كذلك يعلمهم القرآن أدباً آخر في علاقتهم برسول الله ﷺ فيبدو أنه كان هناك تزاحم على الخلوة برسول الله ﷺ ليحدثه كل فرد في شأن يخصه ويأخذ فيه توجيهه ورأيه أو ليستمتع بالانفراد به مع عدم

---

(١) راجع تفسير ابن عاشور، ٢٨/ ٤٦ .

التقدير لمهام رسول الله ﷺ الجماعية وعدم الشعور بقيمة وقته، وبجدية الخلوة به، وأنها لا تكون إلا لأمر ذي بال، فشاء الله أن يشعرهم بهذه المعاني بتقرير ضريبة للجماعة من مال الذي يريد أن يخلو برسول الله ﷺ ويقتطع من وقته الذي هو من حق الجماعة في صورة صدقة يقدمها قبل أن يطلب المناجاة والخلوة . . . ولكن الأمر شق على المسلمين، وعلم الله ذلك منهم، وكان الأمر قد أدى غايته، وأشعرهم بقيمة الخلوة التي يطلبونها، فخفف الله عنهم ونزلت الآية التالية برفع هذا التكليف، وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المصلحة للقلوب(١) .

إن صاحب الظلال قد وضع يده على الأهداف السامية التي أرادها الله سبحانه وتعالى من الجماعة الإسلامية، وهو إحساسهم بقيمة الوقت بالنسبة للرسول ﷺ وهذا الوقت يجب أن يكون خالصاً لجماعة المسلمين بعامة، إلا إذا كانت هناك ضرورة ملحة لبعض الأفراد بالانفراد بالرسول ﷺ شريطة ألا يطغى ذلك على مصلحة الجماعة . ولقد استجاب المسلمون لهذه التربية العالية التي أمرهم بها ربهم جل وعلا . وإذا كان الأمر كذلك فيطيب لنا أن نتناول بالعرض والإبانة الموضوع الثالث : وهو اقتران التوبة بالعمل الصالح . والله الهادي والموفق إلى ما يحب ويرضى .

التوبة والعمل الصالح :

خلق الله تعالى الإنسان، وزوده بقوى وطاقات لا حصر

---

(١) راجع في ظلال القرآن، ٨/ ٢١ بتصرف .

لها، وما زال العلم يكشف عنها يوماً بعد يوم، مما يجعل العقول تصاب بالدهشة والانبهار.

والإسلام يعمل دائماً على توجيه هذه الطاقات توجيهاً حسناً في طريق العمل والإنتاج، على أساس من شرائعه ومبادئه. والعمل في منهج الإسلام، هو العمل المقبول عند الله تعالى، لأنه يسير حسب شرائعه ووحيه. قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[1]. وقال أيضاً: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[2].

يجزيهم الله أحسن ما عملوا؛ لأنهم لا يغفلون عن أداء حق الله في الصلاة، وأداء حق العباد في الزكاة ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾[3].

تتقلب فلا تثبت على شيء من الهول والكرب والاضطراب، وهم يخافون ذلك اليوم؛ فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ ﴾ والعمل في منهج الإسلام دعامة الحياة، ووسيلة لتحقيق دور الخلافة في الأرض. قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ

---

(١) سورة الأحقاف، الآية ١٦.

(٢) سورة النور، الآية ٣٨.

(٣) سورة النور، الآية ٣٧.

وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[١] .

إن الندم والتوبة ليسا نهاية المطاف، ولكنه العمل الذي يعقب الندم والتوبة، وللنية الطيبة مكانها، ولكنها هي بذاتها ليست مناط الحكم والجزاء، إنما تحسب مع العمل، فتحدد قيمة العمل، وهذا معنى الحديث : « **إنما الأعمال بالنيات** »[٢] الأعمال . . لا مجرد النيات .

ولهذا لما سئل الرسول ﷺ : أي الكسب أطيب قال : « **عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور** »[٣] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ في سفر، فمنا الصائم ومنا المفطر . قال : فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، فمنا من يتقي الشمس بيده . قال : فسقط الصوام ـ إعياء ـ وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب . فقال الرسول ﷺ : « **ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله** »[٤] .

بل إن الإسلام عدَّ الإقبال على العمل والتشمير عن ساعد الجد فيه ضرباً من الجهاد في سبيل الله . مر على النبي ﷺ رجل

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٥ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ١/ ٢ كتاب بدء الوحي، ومسلم في صحيحه ٢/ ١٥١٥ كتاب الإمارة، باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم .

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤/ ١٤١ عن رافع بن خديج .

(٤) الحديث أخرجه مسلم في الصيام ٩٧، وأبو داود في الصوم ٤٢، والترمذي في الصوم ١٩، والنسائي في الصيام ٥٢، ٥٩، وأحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٢، ٨٧، ٦/ ٣٥٩ .

فرأى أصحاب الرسول من جلده ونشاطه في الاكتساب والارتزاق ما حملهم على الكلام فيه، قالوا : يا رسول الله لو كان في سبيل الله هذا ؟

فقال الرسول ﷺ : « **إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله . وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله . وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله . وإن كان خرج يسعى رياء ومفخرة فهو في سبيل الشيطان** »[1] .

ومن هنا جاءت التوبة مرتبطة بالعمل الصالح في كثير من آيات القرآن الكريم؛ من ذلك قول الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٠ ﴾[2] .

فإذا أردنا أن نتعرف على أقوال المفسرين في هذه الآية، نرى الإمام الطبري يستهل حديثه عن هذه الآية بقوله : « إلا من أناب من كتمانه ذلك منهم، وراجع التوبة بالإيمان بمحمد ﷺ، والإقرار به وبنبوته، وتصديقه فيما جاء به من عند الله، وبيان ما أنزل الله في كتبه التي أنزل إلى أنبيائه؛ من الأمر باتباعه، وأصلح حال نفسه بالتقرب إلى الله من صالح الأعمال بما يرضيه عنه، وبيّن الذي علم من وحي الله الذي أنزله إلى أنبيائه، وعهد إليهم

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الزكاة ٣٨، والترمذي في البر ٤٢، وأحمد بن حنبل في المسند ٥/ ٢٨٤ .

(٢) سورة البقرة، الآية ١٦٠ .

في كتبه فلم يكتمه، وأظهره فلم يخفه ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ يعني هؤلاء الذين فعلوا هذا الذي وصفت منهم، وهم الذين أتوب عليهم، فأجعلهم من أهل الإياب إلى طاعتي والإنابة إلى مرضاتي »[١].

فنرى الطبري اشترط لتوبة الله على عباده شروطاً ثلاثة :

أولاً : الإيمان الكامل بنبوة محمد ﷺ، والتصديق بكل ما جاء به من عند ربه .

ثانياً : إصلاح حال نفسه بالتقرب إلى ربه، والعمل على مرضاته، والمداومة على هذا العمل .

ثالثاً : عدم كتمان ما أنزل الله على رسوله، بل عليه إذاعته وإشاعته بين الناس، حتى يكون من المقبولين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾[٢].

ويقول ابن عطية : ثم استثنى الله تعالى التائبين الذين أصلحوا في أعمالهم وأقوالهم.

ثم يوضح أن توبة الله على عبده : هي رجوعه به من المعصية إلى الطاعة[٣].

ولا نرى أن ابن عطية قد أضاف جديداً عما وضحه وبين معالمه شيخ المفسرين الطبري .

أما عند الإمام القرطبي فهو يقول عند تفسيره لهذه الآية :

---

(١) راجع تفسير الطبري، ٣/ ٢٥٩ .

(٢) سورة التوبة، الآية ١١٨ .

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية، ٢/ ٤٥ .

« استثنى الله تعالى التائبين الصالحين لأعمالهم وأقوالهم المنيبين لتوبتهم . ولا يكفي في التوبة عند علمائنا قول القائل : قد تبت، حتى يظهر منه في الثاني خلاف الأول . فإن كان مرتداً رجع إلى الإسلام مظهراً شِرائعه، وإن كان من أهل المعاصي ظهر منه العمل الصالح، وجانب أهل الفساد والأحوال التي كان عليها، وإن كان من أهل الأوثان جانبهم وخالط أهل الإسلام، وهكذا يظهر عكس ما كان عليه »[1] .

إن الإمام القرطبي وضع نصب عينيه عند تفسيره لهذه الآية أن التوبة إسلام جديد، والإسلام كما قال الرسول ﷺ يجب ما قبله[2] . فهو يرى أن التائب يعود إنساناً جديداً في كل تصرفاته وأحواله، ينسلخ من جهالته الأولى ليكون المؤمن التقي الورع الذي يخاف الله ويخشاه، ويجعل بينه وبين حياته الأولى وتصرفاته السابقة سداً منيعاً من الحصانة والوقاية وخشية الله تعالى في السر والجهر .

فإذا تركنا الإمام القرطبي واتجهنا إلى العالم المعاصر ابن عاشور، فنراه يتأثر بما قاله ابن مسعود : إن الآية خاصة بمن تاب من اليهود .

فنراه يقول : « وشرط للتوبة أن يصلحوا ما كانوا أفسدوا، وهو بإظهار ما كتموه وأن يبينوه للناس، فلا يكفي اعترافهم وحدهم، أو في خلواتهم، فالتوبة هنا الإيمان بمحمد ﷺ، فإنه

---

(١) تفسير القرطبي، ٢/ ١٨٧ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٤/ ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٥ .

رجوع عن كتمانهم الشهادة له الواردة في كتبهم، وإطلاق التوبة على الإيمان بعد الكفر وارد كثيراً في كتاب الله، لأن الإيمان هو توبة الكافر من الكفر، وإنما زاد بعده ﴿ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾ لأن شرط كل توبة أن يتدارك التائب ما يمكن تداركه مما أضاعه بفعله الذي تاب عنه »[١] .

ثانياً: قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) ﴾[٢] .

قال الإمام القرطبي : ﴿ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ قال قتادة والسدي : معناه التوبيخ والتعيير . وقالت فرقة : هو السب والجفاء دون تعيير . قال ابن عباس : النيل باللسان والضرب بالنعال .

واختلف العلماء في تأويل قوله تعالى : ﴿وَٱلَّتِى﴾ وقوله : ﴿ وَٱلَّذَانِ ﴾ فقال مجاهد وغيره : الآية الأولى في النساء عامة محصنات وغير محصنات، والآية الثانية في الرجال خاصة . وبيَّن لفظ التثنية صنفي الرجال من أحصن ولم يحصن، فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة الرجال الأذى، وهذا قول يقتضيه اللفظ، ويستوفي نص الكلام أصناف الزناة، ويؤيده من جهة اللفظ قوله في الأولى : ﴿ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ وفي الثانية : ﴿ مِنكُمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَابَا ﴾ أي : من الفاحشة . ﴿ وَأَصْلَحَا ﴾ يعني العمل فيما بعد ذلك . ﴿ فَأَعْرِضُواْ ﴾ أي :

---

(١) تفسير ابن عاشور، ٢/ ٧٢ .

(٢) سورة النساء، الآية ١٦ .

اتركوا أذاهما وتعييرهما . وإنما كان هذا قبل نزول الحدود .

فلما نزلت الحدود نسخت هذه الآية . وليس المراد بالإعراض الهجرة، ولكنها متاركة معرض، وفي ذلك احتقار لهم بسبب المعصية المتقدمة، وبحسب الجهالة في الآية الأخرى . والله تواب أي : راجع بعباده عن المعاصي[1] .

لقد جلّى القرطبي الآية ووضحها وأزال ما وقع فيه العلماء من لبس وتخبط لا يسنده دليل، ولا يؤيده نص، ومع هذه التجلية جاء في النهاية وأيد ما قاله العلماء من نسخ هذه الآية، ولكنه لم يوضح لنا العقوبة الواقعة على الرجلين اللذين يأتيان هذه الفاحشة المنكرة بعد نزول الحدود .

وإذا كان هذا ما قاله صاحب الجامع لأحكام القرآن في القرن السابع الهجري، فماذا يمكن أن يضيفه صاحب الظلال في القرن الخامس عشر للهجرة ؟

يقول سيد قطب في قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ ﴾ فالتوبة والإصلاح ـ كما سيأتي ـ تعديل أساسي في الشخصية والكينونة والوجهة والطريق والعمل والسلوك، ومن ثم تقف العقوبة، وتكف الجماعة عن إيذاء المنحرفين الشاذين، وهذا هو الإعراض عنهما في هذا الموضوع، أي : الكف عن الإيذاء . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ وهو الذي شرع العقوبة، وهو الذي يأمر بالكف عنها عند التوبة والإصلاح، ليس

---

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٥/٨٦، ٩٠ .

للناس من الأمر شيء في الأولى، وليس لهم من الأمر شيء في الأخيرة، إنما هم ينفذون شريعة الله وتوجيهه، وهو تواب رحيم، يقبل التوبة ويرحم التائبين .

واللمسة الثانية في هذه الإيماءة، هي توجيه قلوب العباد للاقتباس من خلق الله، والتعامل فيما بينهم بهذا الخلق، وإذا كان الله تواباً رحيماً، فينبغي لهم أن يكونوا هم فيما بينهم متسامحين رحماء أمام الذنب الذي سلف، وأعقبه التوبة والإصلاح. إنه ليس تسامحاً في الجريمة وليس رحمة بالفاحشين، فهنا لا تسامح ولا رحمة، ولكن سماحة ورحمة بالتائبين المتطهرين المصلحين، وقبولهم في المجتمع، وعدم تذكيرهم وتعييرهم بما كان منهم من ذنب تابوا عنه، وتطهروا منه، وأصلحوا حالهم بعده، فينبغي ـ حينئذ ـ مساعدتهم على استئناف حياة طيبة نظيفة كريمة، ونسيان جريمتهم حتى لا يثير في نفوسهم التأذي كلما واجهوا المجتمع بها، مما قد يحمل بعضهم على الانتكاس والارتكاس واللجاج في الخطيئة، وخسارة أنفسهم في الدنيا والآخرة، والإفساد في الأرض، وتلويث المجتمع، والنقمة عليه في ذات الأوان .

وقد عدلت هذه العقوبة كذلك ـ فيما بعد ـ فروى أهل السنن حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « **من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** »[١] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الحدود ٢٩ باب فيمن عمل عمل قوم =

وتبدو في هذه الأحكام عناية المنهج الإسلامي بتطهير المجتمع الإسلامي من الفاحشة، ولقد جاءت هذه العناية مبكرة . فالإسلام لم ينتظر حتى تكون له دولة في المدينة، وسلطة تقوم على شريعة الله، وتتولاها بالتنفيذ؛ فقد ورد النهي عن الزنا في سورة الإسراء المكية قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[1] .

كما ورد في سورة المؤمنون : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ ﴾[2] .

وكرر هذا القول في سورة المعارج[3] . ويتابع صاحب الظلال حديثه قائلاً : « ولكن الإسلام لم تكن له في مكة دولة . ولم تكن له فيها سلطة، فلم يسن العقوبات لهذه الجريمة التي

= لوط ٤٤٦٢ بسنده عن ابن عباس قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . » وذكره، والترمذي في الحدود حديث ١٤٥٦ باب في حد اللوطي، وابن ماجه في الحدود حديث ٢٥٦٤ باب من عمل عمل قوم لوط ونسبه المنذري للنسائي أيضاً ولفظه عنده : « **لعن الله من عمل عمل قوم لوط** » كررها ثلاثاً .

(١) سورة الإسراء، الآية ٣٢ .

(٢) سورة المؤمنون، الآيات من ١ ـ ٦ .

(٣) قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الآيتان (٢٩، ٣٠) .

نهى عنها في مكة، إلا حين استقامت له الدولة والسلطة في المدينة، ولم يعتبر النواهي والتوجيهات وحدها كافية لمكافحة الجريمة، وصيانة المجتمع من التلوث، فلما أن أصبحت له دولة أخذ يزاول سلطته في صون المجتمع من الفاحشة عن طريق العقوبة والتأديب، إلى جانب التوجيه والموعظة »[١] .

إن صاحب الظلال يحصر تصوراته في هذه الآية في نقاط ثلاث :

الأولى : ما يطلق عليه تعديل أساسي في الشخصية الإنسانية التي كانت منحرفة عن الطريق السوي، فهي تسير على غير هدى من وحي، أو دليل من عقل، وتتخبط من جراء وسوسة الشيطان لها، حتى إذا تابت، وآبت، واستقامت على الصراط المستقيم، أصبحت لا يغريها لهو الحديث، ولا يأخذ بلبها بهرج الدنيا وزخرفها .

الثانية : على المجتمع الإسلامي الاتباع لا الابتداع، والتخلق بأخلاق الله تعالى التي أمرنا بها، وما دام الله قد حرَّم الظلم على نفسه، وأمرنا بعدم التظالم، فعلينا السمع والطاعة .

وما دام الله رؤوفاً رحيماً، فعلينا أن نرحم هؤلاء الذين عادوا إلى طريق الإيمان؛ فلا نؤذيهم بقارع القول، ولا نكون عوناً للشيطان عليهم، بل علينا أن نساعدهم لاستئناف حياتهم الجديدة الطاهرة الملتزمة بتعاليم الإسلام .

---

(١) في ظلال القرآن بتصرف، ٢/ ٢٧٧، ٢٧٨ .

الثالثة : حرص الإسلام على سلامة مجتمعه من الفحش والتفاحش حتى وقبل أن تكون له دولة تقيم الحدود، وترد الباغين عن تلويث المجتمع كانت له توجيهاته السليمة في التنفير من الزنا وأساليب المنكر، واستمر الوضع على ذلك حتى أقيمت دولته، عندها شُرعت الحدود وقُنّنت العقوبات، لأن الله يزع بالسلطان ما لم يزع بالقرآن .

ثالثا : قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾[١] .

قال الله سبحانه وتعالى ذلك بعد قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[٢]. وسنحاول بمشيئة الله أن تكون لنا سياحة مع المفسرين، وأقوال المفكرين الإسلاميين لنتعرف على تفسيرهم لهذه الآية .

قال ابن الجوزي في تفسيره : « قال مقاتل : سبب نزولها أن قوماً قالوا عند ذكر مستقر المنافقين، فقد كان فلان وفلان منافقين، فتابا، فكيف يفعل بهم ؟ فنزلت هذه الآية . وعلى هذا يكون المعنى : إلا الذين تابوا من النفاق وأصلحوا أعمالهم بعد التوبة »[٣] .

---

(١) سورة النساء، الآية ١٤٦ .

(٢) سورة النساء، الآية ١٤٥ .

(٣) زاد المسير لابن الجوزي، ٢/ ٢٣٤ .

وكأن الصحابة رضوان الله عليهم قد تعجبوا من توبة المنافقين الذين وصفهم الله تعالى : بأنهم في الدرك الأسفل من النار. دليله ما رواه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن الأسود قال : « كنا في حلقة عبدالله، فجاء حذيفة حتى قام علينا فسلم، ثم قال : لقد نزل النفاق على قوم خير منكم . قال الأسود : سبحان الله ؟ إن الله يقول : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[1] . فتبسم عبدالله، وجلس حذيفة في ناحية المسجد، فقام عبدالله فتفرق أصحابه، فرماني بالحصى فأتيته . فقال حذيفة : عجبت من ضحكه وقد عرف ما قلت، لقد أنزل النفاق على قوم كانوا خيراً منكم ثم تابوا، فتاب الله عليهم .

قال الحافظ ابن حجر : « ويستفاد من قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] صحة توبة الزنديق وقبولها على ما عليه الجمهور، فإنها مستثناة من المنافقين من قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ وقد استدل بذلك جماعة، منهم : أبو بكر الرازي في كتابه أحكام القرآن »[3] .

وقال ابن عاشور في تفسيره : « واستثنى من هذا الوعيد من آمن من المنافقين، وأخلص دينه له، فلم يشبه بتردد ولا تربص

---

(١) سورة النساء، الآية ١٤٥ .

(٢) سورة النساء، الآية ١٤٦ .

(٣) راجع صحيح البخاري، ٨/ ٢٠٠ .

بانتظار من ينتظر من الفريقين، المؤمنين والكافرين، فأخبر أن من صارت حاله إلى هذا الخبر فهو مع المؤمنين »[1] .

وما قاله ابن عاشور لا يخرج عما جاء في صحيح البخاري من أن الآية نزلت في توبة المنافقين .

وقال صاحب الظلال : « وفي مواضع أخرى كان يكتفي بأن يقول : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ فالتوبة والإصلاح يتضمنان الاعتصام بالله، وإخلاص الدين له، ولكنه هنا ينص على الاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله ؛ لأنه يواجه نفوساً تذبذبت، وتولت غير الله ؛ فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والإصلاح على التجرد لله، والاعتصام به وحده، وخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة، وتلك الأخلاق المخلخلة ليكون في الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك، وفي الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد .

وبذلك تخف تلك الثقلة التي تهبط بالمنافقين في الحياة الدنيا إلى اللصوق بالأرض، وتهبط بهم في الحياة الآخرة إلى الدرك الأسفل من النار . وبذلك يرتفع المؤمنون منهم إلى مصاف المؤمنين المعتزين بعزة الله وحده، المستعلين بالإيمان، المنطلقين من ثقلة الأرض بقوة الإيمان ﴿ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾[2] .

وبهذه اللمسات المنوعة يكشف حقيقة المنافقين في

---

(١) راجع تفسير ابن عاشور، ٥/ ٢٤٤ .

(٢) سورة النساء، الآية ١٤٦ .

المجتمع المسلم ويقلل من شأنهم، وينبه المؤمنين إلى مزالق النفاق، ويحذرهم مصيره، ويفتح باب التوبة للمنافقين، ليحاول من فيه منهم خير أن يخلص نفسه، وينضم إلى الصف المسلم في صدق وحرارة وفي إخلاص »[١] .

وفي هذه الآية تتجلى شفافية صاحب الظلال، فنراه يبرز نقاطاً جديدة في تفسير الآية، تستروحها نفوس القابضين على دينهم في القرن العشرين، فتأخذ بمجامع قلوبهم وتزيدهم قوة إيمان وتسلحهم بأسلحة واقية ضد طغيان المادية، وضلالات أصحابها . ومن هذه النقاط :

أ ـ أنه أبرز الجديد الذي تتفرد به هذه الآية عن نظيراتها من الآيات الأخرى، وهو الاعتصام بالله، واللجوء إلى حماه، حتى تستقر نفوسهم، و تطمئن قلوبهم، ويهجرون النفاق والمنافقين إلى غير رجعة .

ب ـ إن الله تعالى هو مقلب قلوب العباد وأمرهم بيده، فلا غضاضة ولا مشاحة في نقل هؤلاء الذين توعدهم بأنهم في الدرك الأسفل من النار إلى مصاف المؤمنين الآيبين العائدين إلى ربهم : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾[٢] .

ج ـ التهوين من شأن المنافقين المصرّين على نفاقهم في

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٥٦٥ .

(٢) سورة يس، الآية ٨٢ .

المجتمع الإسلامي، وأن أمرهم إلى بوار، وكيدهم إلى ضلال، وأموالهم التي ينفقونها للصد عن سبيل الله ستكون عليهم حسرة وندامة، كما قال تعالى : ﴿ **فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** ﴾[1] .

رابعاً : قال الله تعالى : ﴿ **فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٩** ﴾[2] .

قال ابن عاشور في تفسيره : «أي : من تاب من السارقين من بعد السرقة تاب الله عليه، أي : قبلت توبته، وليس في الآية ما يدل على إسقاط عقوبة السرقة عن السارق إن تاب قبل عقابه؛ لأن ظاهر [تاب ـ وتاب الله عليه] أنه فيما بين العبد وبين ربه في جزاء الآخرة، فقوله : ﴿ **فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ** ﴾ ترغيب لهؤلاء العصاة في التوبة، وبشارة لهم . ولا دليل في الآية على إبطال حكم العقوبة في بعض الأحوال، كما في آية المحاربين، فلذلك قال جمهور العلماء : توبة السارق لا تسقط القطع ولو جاء تائباً قبل القدرة عليه . ويدل لصحة قولهم : أن النبي ﷺ قطع يد المخزومية . ولا شك أنها تائبة »[3] . وقال في ذلك لأسامة بن زيد : « **أتشفع في حد من حدود الله . والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها** »[4] .

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٣٦ .

(٢) سورة المائدة، الآية ٣٩ .

(٣) تفسير ابن عاشور، ٦، ٧: ١٩٣ .

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء، ٤/٢١٣، باب حدثنا أبو اليمان . . .إلخ، =

ثم ذكر ابن عاشور رواية عن عطاء : إن جاء السارق تائباً قبل القدرة عليه سقط عنه القطع، ونقل هذا عن الشافعي، وهو من حمل المطلق على المقيد حملاً على حكم المحارب، وهذا يشبه أن يكون من متحد السبب، مختلف الحكم والتحقيق .

ثم رد ابن عاشور على هذه الرواية بقوله : « إن آية الحرابة ليست من المقيد بل هي حكم مستفاد استقلالاً وأن الحرابة والسرقة ليسا سبباً واحداً فليست المسألة من متحد السبب ولا من قبيل المطلق الذي قابله مقيد »[1] .

وما قاله العالم الجليل ابن عاشور قد سبقه إليه الإمام القرطبي عند تناوله لهذه الآية حيث قال :

« إن الله تعالى لما ذكر حد المحارب قال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾[2] وعطف عليه حد السارق وقال : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾[3] فلو كان مثله في الحكم ما غاير الحكم بينهما .

قال ابن العربي : ويا معشر الشافعية سبحان الله أين الدقائق

= وفي الحدود ٩/٨ باب كراهة الشفاعة في الحد، ومسلم في الحدود حديث ١٦٨٨ باب قطع السارق الشريف وغيره، والترمذي في الحدود حديث ٢٥٤٧ باب الشفاعة في الحدود، والنسائي في قطع السرقة حديث ٤٩٠٥، وأبو داود في الحدود ٤ باب في الحد يشفع فيه حديث ٤٣٧٣ .

(١) تفسير ابن عاشور، ١٩٣/٧ .

(٢) سورة المائدة، الآية ٣٤ .

(٣) سورة المائدة، الآية ٣٩ .

الفقهية والحكم الشرعية التي تستنبطونها من غوامض المسائل ؟ . . .إلى أن قال : « وإذا ثبت أن الحد لا يسقط بالتوبة، فالتوبة مقبولة، والقطع كفارة له »[1] .

ونحن نميل إلى ما ذهب إليه ابن عاشور، والإمام القرطبي، وابن العربي في أن التوبة لا تسقط حد السرقة .

وإذا كان الأمر كذلك فما موقف صاحب الظلال من هذه الآية ؟

يقول : يفتح الله باب التوبة لمن يريد أن يتوب على أن يندم ويرجع ويكف، ثم لا يقف عند هذه الحدود السلبية، بل يعمل عملاً صالحاً ويأخذ في خير إيجابي . ﴿ **فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ** ﴿٣٩﴾ ﴾[2] .

فالظلم عمل إيجابي شرير مفسد، ولا يكفي أن يكف الظالم عن ظلمه ويقعد . بل لا بد أن يعوضه بعمل إيجابي خير مصلح . على أن الأمر في المنهج الرباني أعمق من هذا، فالنفس الإنسانية لا بد أن تتحرك، فإذا هي كفَّت عن الشر والفساد ولم تتحرك للخير والصلاح بقي فيها فراغ وخواء قد يرتدان بها إلى الشر والفساد، فأما حين تتحرك إلى الخير والصلاح فهي تأمن الارتداد إلى الشر والفساد، بهذه الإيجابية وبهذا الامتلاء . .إن الذي يربّي بهذا المنهج هو الله الذي خلق والذي يعلم من خلق .

---

(١) تفسير ابن عاشور، ٧/ ٣٧٣ .

(٢) سورة المائدة، الآية ٣٩ .

وعلى ذكر الجريمة والعقوبة، وذكر التوبة والمغفرة، يعقب السياق القرآني بالمبدأ الكلي الذي تقوم عليه شريعة الجزاء في الدنيا والآخرة، فخالق هذا الكون ومالكه هو صاحب المشيئة العليا فيه، وصاحب السلطان الكلي في مصائره . هو الذي يقرر مصائره ومصائر من فيه، كما أنه هو الذي يشرع للناس في حياتهم، ثم يجزيهم على عملهم في دنياهم وآخرتهم[١] .

ونأخذ مما قاله ابن عاشور، والقرطبي، وسيد قطب، من مضامين هذه الآية النقاط التالية :

أ ـ أن حكم الحرابة مباين لحكم السارق، وأن توبة السارق لا تسقط عنه الحد .

ب ـ أن الندم توبة، والتوبة ليست عملاً سلبياً تقف عند الإقرار بالذنب، والإنابة إلى الله، والتوبة إليه، بل يجب أن تتحول إلى عمل إيجابي يتمثل في عمل الصالحات، والكف عن المحرمات والمساهمة الفعلية في إقامة شرع الله في الأرض .

ج ـ أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق لهذا الكون بكل ما فيه وعليه ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ ﴾[٢] وما دام الأمر كذلك فهو المتصرف الحاكم لخلقه ﴿ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[٣] فلا يتحركون إلا بأمره، ولا يتوبون إلا

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب، ٢/٨٨٦ .
(٢) سورة فاطر، الآية ٣ .
(٣) سورة الشورى، الآية ١٣ .

بإذنه، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾[1] فقبل إرادته ومشيئته ما كانت لهم توبة وما وجد لهم عزم عليها .

خامساً : قال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾[2] .

وإذا كان الأمر كذلك فما هي الجهالة في مفهوم الشرع، وعند علماء اللغة ؟ يقال : الجهل نقيض العلم والجمع جُهُل وجُهَّال ويقسمه بعضهم إلى ثلاثة أضرب :

الأول : خلو النفس من العلم. وقد جعل بعض المتكلمين الجهل معنى مقتضياً للأفعال الخارجة عن النظام، كما جعل العلم معنى مقتضياً للأفعال الجارية على النظام .

الثاني : اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه .

الثالث : فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً[3] .

والجهالة عند الإمام القرطبي تعم الكفر والمعاصي، فكل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته . قال قتادة : أجمع أصحاب النبي ﷺ على أن كل معصية فهي بجهالة، عمداً كانت أو جهلاً . وقاله ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد

---

(١) سورة التوبة، الآية ١١٨ .

(٢) سورة الأنعام، الآية ٥٤ .

(٣) راجع بصائر ذوي التمييز، ٢/٤٠٦ .

والسدي، وروي عن الضحاك ومجاهد أنهما قالا : الجهالة هنا العمد . وقال عكرمة : أمور الدنيا كلها جهالة، يريد الخاصة بها، الخارجة عن طاعة الله. وهذا القول جار مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾[١].

وقال الزجاج: يعني قوله : ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية، وقيل : ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ أي : لا يعلمون كنه العقوبة[٢].

وقد رأى المفسرون في هذه الآية وضوحاً وبياناً؛ فلم يقفوا عندها كثيراً، وتكاد تكون آراؤهم التي ذكروها فيها متقاربة ومتحدة سواء ما ذكره الإمام ابن كثير[٣] أو ما دبجته يراعة الألوسي[٤]، أو ابن عاشور[٥]؛ لهذا اكتفينا بما ذكره القرطبي عن الجهالة والجهل .

سادساً : قال الله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾[٦]. ولقد تناول هذه الآية العديد من الشراح والمفسرين . من ذلك أن ابن عطية بدأها بقوله : « ولما حذر الله تبارك وتعالى غضبه والطغيان في نعمه، فتح باب الرجاء للتائبين؛

---

(١) سورة محمد، الآية ٣٦ .
(٢) راجع تفسير القرطبي ٥/ ٩٢ .
(٣) التفسير العظيم ٢/ ١٤٦ .
(٤) تفسير الألوسي ٧/ ١٦٤ .
(٥) تفسير ابن عاشور ٦ ٧/ ٢٥٩ .
(٦) سورة طه، الآية ٨٢ .

لأن التوبة فرض على جميع الناس؛ لقوله تعالى في سورة النور : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

والناس فيها مراتب : أما مواقع الذنوب وقدرته على ذلك باقية فتوبته الندم على ما مضى، والإقلاع التام عن مثله في المستقبل . وأما الذي واقع الذنب ثم زالت قدرته على ذلك، ممن شيّخ أو بآفة فتوبته الندم واعتقاد الترك إن كانت له قدرة . وأما من لم يواقع ذنباً فتوبته العزم على ترك كل ذنب .

والتوبة من ذنب تصح مع الإقامة على غيره، و هي توبة مقيدة، وإذا تاب العبد، ثم عاود الذنب بعينه بعد مدة، فيحتمل عند حذاق أهل السنة ألا يعيد الله تعالى عليه الذنب الأول؛ لأن التوبة قد كانت محضة، ويحتمل أن يعيده لأنها توبة لم يُوَفَّ بها »[2] .

وخلاصة ما قاله ابن عطية في هذا الصدد يمكن إجماله فيما يأتي :

أ ـ أن التوبة فرض فرضه الله تعالى على جميع خلقه، ويؤيده ما جاء في الحديث « **كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون** »[3] .

---

(١) سورة النور، الآية ٣١ .

(٢) راجع المحرر الوجيز لابن عطية ١٠/ ٦٨ .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٤٢٥١ بسنده عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: وذكره . والترمذي في القيامة ٤٩، والدارمي في=

ب ـ قسّم التوبة بحسب الذنب وطبيعة مرتكب الذنب إلى عدة مراتب .

ج ـ عودة التائب إلى ارتكاب المعصية التي تاب عنها موكول أمره إلى خالقه تعالى، إن شاء حاسبه على ما قدم وأخر، وإن شاء تجاوز له عما كان قد تاب عنه .

هذه خلاصة مركزة لتخريجات ابن عطية في هذه الآية، الذي عاش القرن السادس الهجري، فماذا تراه يقول صاحب الظلال الذي عاش في قرننا هذا وشاهد عن كثب سلوكيات النفس البشرية وهي تتحرر وتنسلخ من الكثير الذي نادت به الشرائع وأمر به خالق الإنسان .

يقول سيد قطب : « التوبة ليست كلمة تقال، وإنما هي عزيمة في القلب يتحقق مدلولها بالإيمان والعمل الصالح، ويتجلى أثرها في السلوك العملي في عالم الواقع، فإذا وقعت التوبة، وصح الإيمان، وصدقه العمل فهنا يأخذ الإنسان في الطريق على هدى من الإيمان، وعلى ضمانة من العمل الصالح، فالاهتداء هنا ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل »[1] .

إن صاحب الظلال يترجم للتوبة؛ فيرفض أن تكون كلمة تقال باللسان فقط، وهو بهذا يتوافق مع ما قرره علماء الشرع من أن التوبة إسلام جديد . والإسلام : إقرار باللسان، وتصديق

= الرقاق ١٨، وأحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٩٨ .

(١) راجع في ظلال القرآن ٥/ ٤٨٩ .

بالجنان، وعمل بالأركان .

إذن لا بد من تحقق العمل الصالح بعد الدخول في التوبة، العمل الذي لا تشوبه شائبة، ولا يميل عن الشرع قيد أنملة . فإذا تم ذلك وأصبح العمل الصالح سلوكاً ومنهجاً للتائب، كانت له المغفرة من ربه، ووجده معه بالرعاية والعناية والكلاءة والحفظ في كل عمل يؤديه، وعند كل همسة يهمس بها، وعند كل خلجة يختلجها . قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[(١)] .

معنا بالرعاية التي لا تقف عند حد، معنا بالتوفيق والسداد في أعمالنا وشئون حياتنا، معنا بالمغفرة والتجاوز عن صغائر الذنوب، كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾[(٢)] .

سابعاً : قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾[(٣)] .

يقول الإمام الفخر الرازي : قال أصحابنا : إنه بعد التوبة لا بد من مضي مدة عليه لظهور حسن الحال حتى تقبل شهادته، وتعود ولايته، ثم قدروا تلك المدة بسنة، كما يضرب للعنين أجل سنة[(٤)] .

---

(١) سورة الحديد، الآية ٤ .

(٢) سورة النجم، الآية ٣٢ .

(٣) سورة النور، الآية ٥ .

(٤) راجع تفسير الفخر الرازي ٢٣/١٦٣ . وتفسير آيات الأحكام للصابوني ٢/ ٥٩ .

فقوله : ﴿ وَأَصْلَحُواْ ﴾ فيه دليل على أن التوبة وحدها لا تكفي، بل لا بد من ظهور أمارات الصلاح عليه، فإن هذا الذنب مما يتعلق بحقوق العباد، ولذلك شدد فيه .

ويقول صاحب الظلال : « قد اختلف الفقهاء في هذا الاستثناء، هل يعود إلى العقوبة الأخيرة وحدها؛ فيرفع عنه وصف الفسق ويظل مردود الشهادة ؟ أم أن شهادته تقبل كذلك بالتوبة ؟ فذهب الأئمة : مالك وأحمد والشافعي إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق . وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فيرتفع الفسق بالتوبة، ويبقى مردود الشهادة . وقال الشعبي والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب، إلا أن يعترف على نفسه أنه قال البهتان فيما قذف، فحينئذ تقبل شهادته . [وهذا القول الأخير : هو الذي اختاره صاحب الظلال لأنه في رأيه] إعلان براءة المقذوف باعتراف مباشر من القاذف، وبذلك يمحى آخر أثر للقذف »[(١)] .

ونحن أيضاً نرى أن تنفيذ هذا الرأي، فيه تطهير للمجتمع وتنظيم لسلوك أفراده، وتصفية لقلوبهم، وتربية لنفوسهم؛ فلا يدفعها الهوى والغرض، أو الحقد والشنآن على البغي على الآخرين، وقذفهم بما لم يقترفوه، دون دليل واضح أو بينة قائمة .

---

(١) راجع في ظلال القرآن ٦/٦٣، ٦٤ .

خاتمة البحث :

من نعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عبده أن يبدأ عملاً ما، ثم تحوطه رعاية الله وعنايته حتى يفرغ منه . وأهم الأعمال في هذه الحياة ما كان خالصاً لله تعالى، يبغي به رضى ربه، وشكر نعمته عليه، وأن يكون لمعة مضيئة على طريق الهداية لهؤلاء الذين تفرقت بهم السبل، وانبهمت أمامهم المسالك، فأهملوا شرع ربهم، وكانوا للشيطان أولياء .

ولقد كان من توفيق الله لي أن هداني للكتابة عن التوبة، التوبة الخالصة التي أوجبها الله على عباده، منذ أن خلق البشرية، حتى يرث الأرض ومن عليها .

وتبين لي من خلال إعداد هذا البحث أن التوبة من ألزم اللوازم لكل من خلق الله تعالى، لا تنفك عنهم لحظة، ولا يغفلوا عنها خطرة؛ امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[1] . فآدم أبو البشر يخدعه الشيطان؛ فيستجيب لإغوائه، ثم يتذكر معصيته لربه فيتوب إليه . قال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾[2] . والمستعرض لحياة الأنبياء والرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ يجد أن التوبة كانت من ألزم اللوازم لهم . من ذلك أن موسى ـ عليه السلام ـ يسارع إلى التوبة من فعلته وتجرئه على ربه . قال تعالى

---

(١) سورة النور، الآية ٣١ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٣٧ .

على لسان موسى : ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾[1] أي : أنا أول من آمن أنه لا ينظر إليك أحد إلا مات، وقيل : أنا أول من آمن أنه لا يراك أحد في الدنيا .

و يونس يجأر بالتوبة إلى خالقه ومولاه آيباً راجعاً متبتلاً في عبادة ربه . قال تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[2]

روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال : « **قال رسول الله ﷺ : دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت : لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له** »[3].

ولقد قبل الله تعالى توبة الرسول ﷺ والمهاجرين لما حدث في غزوة العسرة . قال الله تعالى : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[4] .

واختلف العلماء في هذه التوبة التي تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار فقال ابن عباس رضي الله عنهما : كانت

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤٣ .

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٨٧ .

(٣) سنن الترمذي، ٥/٥٢٩ .

(٤) سورة التوبة، الآية ١١٧ .

التوبة على النبي ﷺ لأجل إذنه للمنافقين في القعود، دليله قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ﴾[(١)] وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه، وقيل: توبة الله عليهم استنقاذهم من شدة العسرة، وقيل: خلاصهم من نكاية العدو.

وإذا كان هذا حال التوبة مع الرسل والأنبياء وأتباعهم، فنجد أن التاريخ وكتب السير تحفظ لنا الكثير من توبة الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقتنا هذا.

من ذلك توبة أبي لبابة التي يقول عنها: «لما أرسلت قريظة إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يرسلني إليهم ـ حين اشتد الحصار عليهم ـ دعاني رسول الله ـ عليه السلام ـ وقال: «**اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس**». قال فدخلت عليهم وقد اشتد عليهم الحصار فهشوا إليّ وقالوا: يا أبا لبابة، نحن مواليك دون الناس جميعاً، وسألوني ماذا يريد بهم الرسول ﷺ فأومأت إلى حلقي ـ أي الذبح ـ قال: فندمت واسترجعت، وذهبت إلى المسجد، وربطت نفسي في سارية، حتى مضى علي سبعة أيام، لا أذوق طعاماً ولا شراباً، حتى قبل الله توبتي وبشرت بذلك، وجاء الرسول ـ عليه السلام ـ وحلّ وثاقي من السارية، فقلت له: «يا رسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال: «**يجزئك الثلث يا أبا لبابة**»[(٢)].

---

(١) سورة التوبة، الآية ٤٣.

(٢) راجع الاستيعاب، ٤/١٦٧، ١٦٨ بتصرف.

ومن توبة الصحابة أيضاً ما فعله حنظلة الأسيدي، حيث رمى نفسه بالنفاق، يقول : نافق حنظلة يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « **وما ذاك ؟** » قال : يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار حتى كأنّا نراهما رأي العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج، وداعبنا الأولاد، ونسينا كل شيء، فقال رسول الله ﷺ : « **والذي نفسي بيده : إن لو تدومون على ما تكونون عليه عندي [من ذكر وعبادة] لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة** » يكررها ثلاث مرات[١] .

هكذا كان إحساس الصحابة الذين تربوا في رحاب الإسلام، مراقبة تامة لربهم، وتدقيق في كل عمل يقومون به، وخوف من الله تعالى أن يعمل أحدهم عملاً؛ فينزل في شأنه قرآن يعاتبه فيه ربه، أو يلومه على شيء صدر منه . كما قال تعالى لرسوله الكريم : ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَـٰهُ ﴾[٢] . ومن قبل الصحابة، وعند الأمم السابقة يحدثنا الرسول ﷺ عن توبة أصحاب الغار . قال رسول الله ﷺ : « **بينما ثلاثة نفر يمشون إذ أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل فانحطت عليهم في غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم باب الغار . فقال بعضهم لبعض : ادعوا الله بصالح أعمالكم فدعوا الله ـ عز وجل ـ فقال أحدهم : اللّهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وامرأة وصبيان فكنت أرعى عليهم، فإذا رحت حلبت، فبدأت بوالدي أسقيهما قبل بنيّ، وإنه نأى بي طلب**

(١) صحيح مسلم، ٣/٢١٠٦، ح ٢٧٥٠ .
(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٧ .

الشجر[1] فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، فجعلوا يتصايحون عند قدمي، فلم أزل كذلك حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج[2] عنا فرجة، ففرج الله ـ عز وجل ـ لهم فرجة .

وقال الآخر : اللّهم إنه كانت لي ابنة عم فأحببتها كأشد ما يحب الرجل النساء، فطلبت إليها نفسها، فأبت عليّ حتى آتيها بمائة دينار، فجئتها بها، فلما قعدت بين رجليها قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة، ففرج الله لهم فرجة .

وقال الآخر : اللّهم إني استأجرت أجيراً، فلما قضى عمله قال : أعطني حقي فعرضته عليه فتركه ورغب عنه، فثمرته حتى اشتريت له بقراً ورعاءها، فجاءني بعد حين فقال : اتق الله ولا تظلمني حقي، فقلت انطلق فخذ تلك ورعاءها . فقال : اتق الله ولا تستهزىء بي، فقلت إني لا أستهزىء بك، فخذ تلك البقر ورعاءها . فأخذها وذهب، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي ففرجها الله عنهم »[3] .

---

(١) أي : بعد طلب المرعى .

(٢) الفرجة : الفتحة، وافرج لنا : فافتح لنا .

(٣) راجع البخاري في كتاب الحرث والمزارعة، باب إذا زرع بمال قوم بغير =

إن هؤلاء الثلاثة الذين أصابهم هذا الكرب الشديد عن طريق إطباق الغار عليهم، يطلبون من الله تعالى أن يفرج عنهم كربهم، ويزيح عنهم بلاءهم، ويقدمون بين طلبتهم هذه صوالح أعمالهم؛ لأنهم دائماً يحرصون على مرضاة خالقهم، عن طريق تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، وهم مع هذا كله يتوبون إليه عندما يقعون في الصغير والجليل؛ عسى الله أن يتوب عليهم .

ولقد استجاب لدعائهم الخبير بأحوالهم، والمطلع على سرائرهم، والعليم بكل ذرة من ذرات كيانهم : ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴿١٤﴾ ﴾[1] .

وفي النهاية نقول لهؤلاء الشاردين والشاردات الهاربين إلى طريق الغواية، الفارين إلى وسوسة الشيطان، فروا إلى خالقكم وعودوا إلى بارئكم؛ فالسماء مفتحة الأبواب لكل توبة نصوحة، ورحمة الله واسعة تسع صغائر الذنوب وعظائمها . وعلينا جميعاً أن نستجيب إلى دعوة الله تعالى : ﴿ ۞ **قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾[2] .

هذا وبالله التوفيق.

= إذنهم وكان في ذلك صلاح لهم، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب ٢٧ قصة أصحاب الغار الثلاثة حديث رقم ٢٧٤٣، والنسائي في كتاب الرقائق ٦/٢٣٦ .

(١) سورة الملك، الآية ١٤ .

(٢) سورة الزمر، الآية ٥٣ .